

قراءة نقدية في أطروحة دكتوراه  
"نشاط جنوة الصليبي والتجاري في سواحل بلاد المغرب  
(12 - 15م)"

أ. د مصطفى نشاط\*

"نشاط جنوة الصليبي والتجاري في سواحل بلاد المغرب من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر الميلادي" هو موضوع الأطروحة التي ناقشها السيد رشيد باقة بقسم التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية التابعة لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة سنة 2007-2008. تقوم القراءة التي نقدمها عن هذه الأطروحة التي ما تزال مرقونة على شقين: أولهما يعنى بعرض أهم أقسامها، وثانيهما يتعلق ببسط مجموعة من الملاحظات النقدية. أهم أقسام الأطروحة: تتكون من مقدمة وخمسة فصول (عوض الأبواب).

في المقدمة تمت الإشارة إلى أسباب اختيار الموضوع "بهدف الكشف عن جانب من مسار العلاقات التي ربطت جمهورية جنوة الإيطالية مع بلاد المغرب خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصور الوسطى" (ص3). وإذا كان الموضوع غائبا بالجامعات الجزائرية، فإنه حاضر لدى الأوربيين منذ زمن بعيد" (ص5) بفعل توافر وثائق الأرشيف الأوربي، أما أهم المصادر المعتمدة في الدراسة فتتمثل في الحوليات الجنوبية ومعاهدات السلم والتجارة التي أوردها مجموعة من المتخصصين الأوربيين بدراساتهم، من أمثال "دوماص لاتري" و"لوبيز سباتينو" و"ديفورك شارل إيمانويل" و"بالار مشيل" و"جيهل جورج". بينما تقل المادة المصدرية عن الموضوع بالمصادر العربية إذ إنها "سطحية تفتقر لعنصر التركيز والتدقيق" (ص8).

وقد تناول الفصل الأول الظروف العامة السائدة بحوض البحر المتوسط مع نهاية القرن 11م باعتبارها كانت مهددة لبوادر التفوق الأوربي على هذا الحوض، وكانت هذه الظروف الإيجابية في صالح المدن البحرية الإيطالية، وعلى رأسها البندقية وجنوة "حيث لعبت المدينتين (هكذا) بلا منازع دور الوسيط التجاري بين أوروبا والعالم الإسلامي لفترة تقارب خمسة قرون" (ص40).

\* - أستاذ التعليم العالي في التاريخ الحديث - جامعة محمد الأول - وجدة - المملكة المغربية.

أما الفصل الثاني فانبرى للبحث في العوامل التي أفرزت نهضة جنوة السياسية والاقتصادية والعسكرية، فقد استفادت من منافستها للبنديقية على التجارة مع بيزنطة، " واحتفظت جنوة المنتصرة على كامل مواقعها بضافا البوسفور والبحر الأسود" (ص90).

وبحث الفصل الثالث في الحملات والغارات التي قام بها الجنويون على سواحل بلاد المغرب خلال الفترة المدروسة وردود فعل سكانها، وذلك باستعراض بعض المحطات المتشعبة في العلاقات بين الطرفين، مثل الحملة الجنوبية على سبتة سنة 1234م، والحملة على تونس سنة 1270م، وعلى جزيرة جربة سنة 1388م.

بينما رصد الفصل الرابع المبادلات التجارية بين جنوة وبلاد المغرب اعتمادا على بعض المعطيات المستقاة من عقود تجارية نشرها باحثون أوريبيون، فهذه العقود تعد بمثابة "مصدرا نفيسا(هكذا) يقدم معلومات دقيقة ورسمية عن واقع التجارة العالمية في محيط البحر الأبيض المتوسط خلال مرحلة العصور الوسطى المتأخرة" (ص225).

أما الفصل الأخير فوقف عند أهم التنظيمات التجارية والمالية من خلال الحديث عن أهم الشركات التجارية وفترات الرحلات التجارية وأنواع الضرائب المفروضة على الجنويين المتعاملين مع بلاد المغرب، مما ساهم في سيولة المبادلات التجارية بين الطرفين " إلى درجة صار، كلما حدث انقطاعا أو خلا (هكذا) في تيار التجارة المتدفق عبر طريق البحر المتوسط، بسبب الحروب أو المعوقات الطبيعية، إلا وشعر سكان تلك الأقطار بالضرر الذي يصيبهم، من جراء النقص في تلك البضائع المتبادلة" (ص311).

واختتمت الأطروحة بتقديم حوصلة بأهم النتائج المتوصل إليها ضمن صفحتين، ومن أهم الخلاصات أن "حكومة جنوة كانت دوما وراء المبادرة لإجراء مفاوضات مع بلاد المغرب حتى لا تتعرض مصالحها للحضر(هكذا) والتهميش (ص339)، وقد مر نشاط جنوة التجاري مع بلاد المغرب بمرحلتين: تبدأ الأولى من منتصف القرن 12م إلى نهاية القرن 13م حيث "تميزت بنوع من التواصل والازدهار" (ص339) ومرحلة ثانية تمتد إلى منتصف القرن 15م وطبعها "التذبذب وعدم الاستقرار" (ص340)، فقد عادت جنوة إلى مواقعها القديمة في بيزنطة، واحتكرت "لوحدها النشاط التجاري بين بيزنطة وأوربا" (ص340) ما جعلها "تستغني عن التجارة الإفريقية" (ص340)، ومن الحقائق - حسب صاحب الأطروحة - أن بلاد المغرب

"ظلت على مدى فترة العصور الوسطى منطقة جذب (هكذا) هامة للتجار الأوربيين لموقعها عند منتهى طرق قوافل جنوب الصحراء" (ص340).

وقد ذيلت الأطروحة بملاحق تشتمل وثائق في شكل معاهدات ورسائل وعقود تجارية لم يفتم صاحب الأطروحة التذكير بأنه قام "بترجمتها من لغتها الأصلية اللاتينية إلى اللغة الفرنسية لتكون مرجعا لمن يريد مواصلة البحث في هذا الحقل من الدراسات" (ص10).

**1- ملاحظات نقدية:** قسمت هذه الملاحظات إلى ثلاثة أصناف، وهي:

أ: ملاحظات منهجية: يتعلق الأمر بمجموعة من الضوابط التي تقتضيها الكتابة التاريخية، ومن ذلك:

\* ضبط النصوص التاريخية: من الملاحظ أن عدة نصوص واردة بالأطروحة لا تتوافق مع ما هي عليه في مظاهرها، ويمكن أن نستدل على ذلك بالأممذج التالي: جاء في ص318: "ولما كان ثمة نقص في بعض هذه المواد في بلاد المغرب، فقد تولى تجار المدن الإيطالية، وفي مقدمتهم تجار جنوة استجلاب هذه التوابل والأفاويه من أسواق المشرق إلى موانئ المغرب"، والإحالة على كتاب المعيار للونشريسي، الجزء 1، ص26، وبالعودة إلى الصفحة نفسها، نجد حديثا عن نازلة تتصل بأواني الخمر، ولا علاقة لها مع ما ورد بمتم الأطروحة.

ومن مظاهر الجنوح في ضبط النصوص التاريخية أن بعضها ورد بشكل مشوه، وقد يكون مرد ذلك إلى عدم الرجوع إلى النص الأصلي، وإلى التعامل مع المظان عبر الوساطة والنقول من المراجع. ومن ذلك نص لابن خلدون عن شهرة بجاية بغزاة البحر، حيث ورد في صفحتي 179-180 من الأطروحة على الشكل التالي: "ثم فشل ربح الفرنجة واختل مركز دولتهم بإفرنسة، وافترمت طوائف من برشلونة وجنوة والبنادقة، وغيرهم من أمم الفرنجة النصرانية، وأصبحوا دولا متعددة، فتنهت عزائم كثيرة من المسلمين بسواحل إفريقية لغزو بلادهم، وشرع في ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجمع النفراء والطائفة من غزاة البحر ويصنعون الأسطول، ويتخيرون له الرجال والأبطال ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة...، ويصادمون ما يلاقونه من أساطين الكفرة...".

بينما جاء في النص الأصلي: "وافترقت" - "في أهل برشلونة" - أبطال الرجال" - "يلقون من أساطيل"؛ فشتان ما بين الأساطيل والأساطين التي تعني العظماء في مجال معين.

وقد انجر عن ضعف العدة اللغوية عدم التوفيق في قراءة بعض النصوص التاريخية، وفي ما يلي أنموذج عن ذلك. فقد ورد في صفحة 186 من الأطروحة عن ثابت بن محمد حاكم طرابلس الذي تعرضت المدينة في عهده لهجوم جنوي سنة 756هـ ما يلي: "وكان حري لهذا (هكذا) الحاكم المغرور أن يدعم طموحاته الكبيرة بشيء من القوة"، ولعل هذا الحكم الصادر في حق ثابت مرتبط بقراءة خاطئة لما ورد عنه بالمصادر، كما هو في الجزء الرابع من الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني حيث نقرأ: "أمير طرابلس الغرب.... كان شابا غرا فاحتال عليه الفرنج...". فالشاب الغرّ بكسر الغين، ويجمع على غر وأغرار، هو من لا خبرة له، وبذلك فهو أبعد عن الغرور.

\* ضبط أسماء الأعلام والأماكن: تم العبث بمجموعة من الأسماء طوال الأطروحة وبشكل متكرر، فالأمر لا يتعلق بمجرد أخطاء مطبعية. وفيما يلي نماذج عن ذلك:

ابن القنفذ (ابن قنفذ)، أهازن (أهازيري)، الطاهر العمودي (العموري)، ابن بسام الشنتيري (الشنتري)، الغبرني (الغبريني)، محمد صبحي (يقصد محمد حجي)، ابن همود (ابن هود)، أبو بكر العربي (ابن العربي)، الأزفي (يقصد العزفي)، ولعل صاحب الأطروحة اكتفى ببعض الدراسات الأجنبية دون أن يكلف نفسه العودة إلى الأصول، ولم يستأنس بمصادر الجغرافية وكتب المسالك لضبط أسماء الأماكن، ما جعله يورد الأسماء التالية: مالاقا(مالقة)، سالالا(سالا)، بل إن الضبط غاب في كتابة أماكن بالمغرب الأوسط، كما هو الشأن مع حنين (هنين) وقمرت (تبهرت)، وأما (إفريقية) التي كانت تغطي في فترة الدراسة تقريبا تونس الحالية، فكتبت طوال الأطروحة "إفريقيا"، والغريب أنه لما كتب صاحبها "إفريقية"، فإنه عني بها " إفريقيا"، ورد في ص 200 من الأطروحة: "استمر نشاطهم البحري على هذا المنوال إلى عهد مجيء الأتراك إلى شمال إفريقيا". وطال عدم ضبط الأسماء والأماكن رسمها باللغة الأجنبية، ومن نماذج ذلك تشويه أسماء الباحثين، مثل:

Baletto,Ballotto(Balletto)- Pistarina,Pizarino(Pistarino)-  
Ballard(Balard)-Dufourq(Dufourcq)-Mareng(Marengo)-  
Santan(Santon)-Doumerg(Doumerc)-Chiavani(Chiavari)....

\*السقوط في إسقاط تاريخي قاتل: ورد بالأطروحة عن أنواع المراكب التي استعملها الجنويون في التجارة مع بلاد المغرب ما يلي: "... إذ عادة ما يشترك مجموعة من المستثمرين في بناء

باخرة... "(ص292) وفي الصفحة الموالية جاء: "تليها الباخرة المسماة نيف"؛ فمن المعلوم أن سفن تلك المرحلة كانت تعتمد على المجاديف والأشرعة، وأما السفن البخارية فلم تظهر إلا بعد استعمال البخار مع الثورة الصناعية في القرن 18 الميلادي، ويتجلى الإسقاط أيضا في عدم احترام التسلسل الكرونولوجي عند استعراض آراء الدارسين؛ ففي معرض الحديث عن هوية فرقة عسكرية مجهولة هاجمت سبتة، وترد بالمصادر الأجنبية باسم "كلكريني"، ورد في الصفحة 141 من الأطروحة ما يلي: "لكن من الذي حرض هذه الفرقة على أن تتجهز ضد مدينة سبتة، يتساءل بدوره المؤرخ جيهل ويحيب: أنه ربما جاء ذلك انتقاما لمقتل سبعة من أتباع دير الفرنسيين بالمغرب سنة 1227م. غير أن هذه الفرضية يستبعدتها أيضا الخبر ديفورك الذي لم يعثر على أبسط إشارة في الأرشيف الإسباني، وهو خبير في هذا الميدان، تدل على وجود فرقا(هكذا) عسكرية استخدمتها الجمعيات الدينية على هذا العهد". فأيهما أسبق؟ "ديفورك" المتوفى سنة 1982م وكتب دراسته عن سبتة والهجوم الجنوبي على سبتة سنة 1955م، أم "جيهل" الذي نشر كتابه سنة 1995م، وما يزال حيا يرزق؟. ثم إن الحديث عن إسبانيا (هكذا) عصرئذ دون تحديد، يحتاج إلى مراجعة لأن إسبانيا الحالية كانت منقسمة زمن الدراسة إلى عدة ممالك كأراغون ونافار وليون وقشتالة...

\*إطلاق أحكام القيمة بشكل مجاني: تحولت الأطروحة في كثير من المقاطع إلى مناسبة لإصدار أحكام قيمة في حق بعض الفاعلين في التاريخ أو لتقويم بعض الأفعال. فإلى أي حد يمكن اعتبار التاريخ محكمة لتجريم هذا ولتبرئة الآخر؟ لقد سبقت الإشارة إلى وصف صاحب الأطروحة حاكم طرابلس بـ"المغرور" في قراءة خاطئة لمنطوق النص، وفي وقفته عند رد فعل الجنوبيين سنة 1235م بعد تعرض فندقهم لهجوم القبائل المغربية، وصف دعوة اليانشتي حاكم سبتة لمواجهة الجنوبيين بـ"الدعاية المغرضة"(ص145) التي صدقتها تلك القبائل.

وتجب الإشارة في سياق الحملة الجنوبية على سبتة خلال تلك السنة إلى ورود مقاطع بالأطروحة نجد لها ما يشابهها تقريبا في دراسة سابقة، وهي لصاحب هذه القراءة تحت عنوان "عودة إلى لغز "كلكريني" أو المهجوم على سبتة"، وقد صدرت ضمن الأعمال المهداة إلى الأستاذ إبراهيم بوطالب، منشورات كلية الآداب بالرباط، 2001، صص 49-61، وأعيد نشرها ضمن كتاب

المعطيات الواردة بالدراسة	المعطيات الواردة بالأطروحة
- "هذا الاسم لم يرد البتة في المصادر العربية ص50.	- لم تشر المصادر الإسلامية البتة لهذه الحملة...ص140.
- "وفي هذه السنة (أي 1234)، جرى حدث له علاقة بشعب "كلكريني"، ولربما هم غالليون أو باسكيون أو نافاريون، وهو أمر يبعث على التشكك، لأنني لم أتوصل إلى أي إشارة تحدد هوية "كلكريني"، ص52.	- أما المؤرخ جستيان أحد مؤلفي الحوليات الجنوبية، فلم يعثر على مصدر موثوق بشأن تحديد هوية الفرقة الصليبية التي قادت الهجوم المباغت على ميناء سبتة، وكتب يفترض " في هذه السنة (1234) وقعت حادثة لها علاقة بعناصر الكلكريني، ربما هم غالليون أو باسكيون أو نافاريون، غير أن هذا الأمر يبقى محل شك لأنني لم أعتز على دليل يحدد هوية هذه العناصر"

"نصوص مترجمة ودراسات عن العلاقات الإيطالية المغربية أواخر العصر الوسيط، نشر دار الطالب، وجدة، المغرب، 2005م".

فهل الأمر مجرد توارد سياق غير مقصود، أم يمكن إدراجه في إطار آخر؟  
 \*تحليل منهجي في تصور المجال المدروس: سواحل بلاد المغرب بالأطروحة هو المجال المتوسطي، أي المشرف على البحر الأبيض المتوسط، بينما تمتد هذه السواحل أيضا على البحر المحيط (البحر الأطلسي) بالنسبة للمغرب الأقصى. وقد شملت الأنشطة التجارية للجنوبيين هذا المجال كذلك، مما جعل حديث الأطروحة عن الموضوع منقوصا. ولدينا من الإشارات التاريخية المستقاة من الأرشيف الجنوبي ما يقوم حجة على أن اهتمام الجنوبيين بالتجارة مع السواحل المغربية الأطلسية، بدأ على الأقل مع منتصف القرن 6هـ (12م)، واستمر طيلة القرن الموالي حيث كان لهم حضور بأصيلا وأنفا (الدار البيضاء حاليا) وأزمور وأسفي.  
 ومن المفيد الإشارة إلى أن جنوة عادت إلى ضرب عملتها على أساس الذهب سنة 1252م، وكانت أسفي من المراسي التي تنتهي إليها القوافل القادمة من السودان الغربي محملة بالذهب، ومن ثم اندفع تجار جنوة نحو هذا المرسى المغربي. وقد ازداد اهتمام الجنوبيين بالسواحل

الأطلسية المغربية الجنوبية، وفي هذا السياق، نضع رحلة الأخوين "فيفالدي" اللذين فقدوا جنوب مياه أسفي سنة 1292م، وأصبحت رحلتها جزءاً من الموروث الأسطوري الجنوبي . وفي سنة 1312م، اكتشف الجنوبي "لتروطو" إحدى جزر الكناري التي ظل بها مدة عشرين سنة، وأصبحت الجزيرة تدعى "لتروطا" باسم مكتشفها.

\*هفوات منهجية أخرى: يتجلى العبث المنهجي كذلك من خلال عدم ضبط طريقة كتابة الإحالات. فأحيانا يتم التخلص من التدقيق بعبارة "راجع ما سبق" (ص:146) دون أي تحديد، أو بكتابة هوامش ناقصة كما هو في الصفحة 296 حيث تمت الإحالة على عنوان (هكذا)، أو أحيانا ترد الإحالات ساقطة كما في صفحات 162 و228 و318. 106 congre. ومن الهنات المنهجية الأخرى أن الأطروحة كتبت في نسبة كبيرة منها بالتاريخ الميلادي، وفي شبه غياب للتقويم الهجري، ويتجلى هذا الأمر منذ البداية مع عنوانها، والحالة أنها تتعامل مع فضاء مسيحي إسلامي، وأكثر من ذلك نوقشت بجامعة للعلوم الإسلامية. وأما الصور التي عرضت بالأطروحة، فيطبعها الإبهام ولا وجود للأصول التي اقتبست منها، مما يتنافى ومقتضيات توظيف وسائل الإيضاح.

ونصل إلى خاتمة الأطروحة التي لم تتعد الصفحتين إلا بسطر ونصف السطر، علما بأن الخاتمة- كما هو متعارف عليها في الأبحاث الأكاديمية- تمثل مناسبة لبسط الخلاصات الجديدة التي انتهت إليها الدراسة ولآفاقها المستقبلية. ومن المفيد الإشارة إلى أن من "الحقائق التي كشفت عنها الدراسة" أن بلاد المغرب "ظلت على مدى فترة العصور الوسطى منطقة جذب (هكذا) هامة للتجار الأوربيين لموقعها عند منتهى طرق قوافل جنوب الصحراء" (ص:340). فالكشف عن أي حقيقة، يحيل على السبق وعلى الفتح، ثم إن هذا الكلام أطلق على عواهنه دون مراعاة قانون التطور الذي هو من أهم شروط الكتابة التاريخية. فمفهوم العصور الوسطى لبلاد المغرب، كما هو متعارف عليه عند معظم المهتمين بهذه الفترة- وإن كانت مسألة التحقيق من الصعب التوافق حول معاييرها- تمتد على زهاء عشرة قرون من دخول الإسلام إلى هذه الربوع وإلى مطلع العصور الحديثة مع الاكتشافات الجغرافية الكبرى. فهل كانت بلاد المغرب تجتذب التجار الأوربيين، على الأقل خلال القرنين الأولين من تلك الحقبة حيث سادت ما عبر عنه الفرنسي "غوتيه فيلكس" بالقرون أو العصور المظلمة؟.

ب: البليوغرافيا المعتمدة: تحضر بعض الدراسات لمتخصصين أوروبيين في الموضوع، من أمثال "لوبيز" و"ديفورك" و"جيهل" و"باليطو" و"بسترينو"، لكن يلاحظ أن مجموعة مهمة من دراسات هؤلاء غائبة بالأطروحة. ويمكن أن نتمثل عن ذلك بنموذجين من الباحثين، وهما "باليطو" و"لوبيز". فقد اعتمد صاحب الأطروحة على مقالتين لباليطو التي تعد حاليا من أكبر المهتمين بعلاقات جنوة ببلاد المغرب في العصر الوسيط التابعين للقسم التابع لجامعة جنوة "قسم علوم القديم والوسيط". بينما لهذه الباحثة سلسلة من المقالات والكتب لها علاقة بموضوع الأطروحة، ومنها:

-Da Genova al Maghrib 1222-1226, in Bolletino dell' associazione Sardo di Sassari, Moderna Sassari, 1982.

وثمة ترجمة إلى اللغة العربية لهذه المقالة من لدن صاحب القراءة بمجلة "أمل" عدد 5، سنة 1994، صص 4-16.

- Genova nel duecento ,Uomini nel porto e uomini sul mare, Genova, 1983.

- Bougie nei manuali Toscani di mercatura del due trecento, in Italia e Algeria ;Aspetti storici di un amicizia mediterranea, Milano, 1982, pp 81-98.

أما "لوبيز" فهو صاحب أكبر عدد من الأبحاث عن موضوع الدراسة، لكن لم يحضر منها بالأطروحة سوى أقل من نصفها، ومنها:

-Le facteur économique dans la politique africaine des papes, in Revue Historique, T198, 1974, pp178-188.

-Sette cento anni fà : il ritorno all'oro nell'occidente duecentesco, in Rivista Storica Italiana, T 65, pp19-55 .

-Sù e Guì per la storia di Genova, Gênes, 1975.

-L'importanza del mondo islamico nella vità economica europea, in l'occidente e l'Islam nell'alto medio evo, Settimane di Studio sull'alto Medioevo XII, T1, pp433-460, Spoleto, 1965.

-Le plus ancien manuel italien de technique commerciale, in Revue Historique ,243,1970.pp 67-76.

لقد اكتفى صاحب الأطروحة بما حصل عليه من مادة مصدرية من خلال "تربصه" بالسوربون، ولا يبدو أنه اطلع على الأرشيف الجنوي وباقي المكتبات الإيطالية، والحالة أن للموضوع صلة بفضاء إيطالي مع بلاد المغرب. وهذا ما فوت عليه الاستفادة من مجموعة من الدراسات



لمتخصصين في هذا المضمار، وبالتالي غاب كل تحيين للموضوع. ويمكن الاكتفاء بنموذج واحد دال. فقد اعتمد على دراسة للباحثة الإيطالية "بالي بوتى" وليس "بالي" وهي:

**Il consolato genovese di Tunisi nel quattrocento, ASG..**

- وهذا اختزال للدلالة على أرشيف دولة جنوة، وأما مكان النشر فهو:

**"Archivio Storico Italiano."**

- ونجد إشارة لإحالتين عن دراستين للباحثة ذاتها بصفحة 296 من الأطروحة لمن أراد أن يستزيد من معطيات أنواع المراكب الجنوبية المستعملة في فترة الدراسة. لكنهما غير مضبوطتين، وهما:

- **Una cita e il suo mare ,genova nel medioevo.**

- **I nomi delle nave, pp 69-83.**

وأما الصواب فهو :

- **Una citta e il suo mare, Genova nel medioevo, Bologna, CLUEB, 1991.**

- **I nomi di nave a Genova nei secoli 12 e 13, in Miscellanea di Storia Ligure, in Memoria di Giorgio Falco, Genova, 1966, pp 65-86.**

مما يطرح السؤال عن مدى الإطلاع الفعلي على الدراستين، ومدى حضور عنصر الوساطة في عملية النقل؟ ولعله كان من الأجدى الرجوع إلى أهم دراسة للباحثة تهم موضوع الأطروحة، وهي:

- **Il trattatto del 1343 tra Genova e Tunisi, in Saggi e documenti, 1975.**

إن أهمية هذه الدراسة تأتي من كونها تكشف النقاب عن معاهدة هدنة وتجارة، ظلت مجهولة إلى تاريخ نشرها. وتتوافر حاليا عن النسخة الغربية عن المعاهدة، بينما ما تزال نسختها العربية مفقودة. ثم إن هذه المعاهدة شكلت مرجعا لباقي المعاهدات التي أبرمتها جنوة مع الدولة الحفصية لاحقا، حتى أن معاهدة 1433م بين الطرفين استعادت تقريبا بنود معاهدة 1343م، فضلا على أن هذه الأخيرة كانت المعاهدة الوحيدة التي عقدها طوال القرن 14م.

ومن الدراسات المتخصصة الأخرى التي غابت بالأطروحة تلك التي أعدها "شوب" أصلا باللغة الألمانية عن تجارة الأوربيين بحوض البحر المتوسط إلى نهاية القرن 13م (7هـ)، وقد ترجمت إلى اللغة الإيطالية في بداية القرن العشرين تحت عنوان:

**-Schaube(A), Storia del commercio dei popoli latini nel mediterraneo sino fine delle crociata, Torino, 1915.**

وتكمن أهمية الدراسة في أنها كملت دراسات يمكن اعتبارها "كلاسيكية" في الموضوع، مثل دراسات "دوماص لاتري" و"هييد"، وصححت بعض هفواتهما من خلال توسيع الاعتماد على الوثائق المحفوظة بأرشفيف جنوة. وتجب الإشارة إلى وجود ترجمة إلى العربية للمعطيات التي تهم علاقات جنوة بالمغرب الأقصى (راجع كتاب نصوص مترجمة، سبق ذكره، صص 47-79).

كما أن ثمة دراسات متخصصة في الأسطول الجنوي غير حاضرة بالأطروحة، مثل:

**-Manfroni(Camillo), Storia della marina italiana dalle invasioni barbariche al trattato di Ninfeo, Livourno, 1899.**

وهو مفيد في باب القرصنة التي تعرضت لها سواحل بلاد المغرب من لدن الجنويين، وصراع هؤلاء مع منافسيه من البيزيين والبنادقة والأراغونيين للسيطرة على تلك السواحل. والملاحظ أنه تم إدراج دراسة متخصصة أخرى ببليوغرافية الأطروحة، وهي:

**Caro(G), Genova e la supremazia sul Mediterraneo(1257-1311), 2V, Genova, 1975.**

لكن الاستفادة منها لم تتعد في الغالب إيرادها باللائحة البليوغرافية، وتكفي الإشارة إلى أن "كارو" ينفرد بتوظيف وثيقة محفوظة بأرشفيف جنوة عن استيراد جنوة للحبوب من مملكة بني عبد الواد بتلمسان.

ومن مظاهر الهزلة البليوغرافية بالأطروحة أن أهم مصدر عن موضوع الموازين والعملات والضرائب التي سادت بالمبادلات الجنوبية مع بلاد المغرب غائب بها، ويتعلق الأمر بكتاب:

**Pegolotti(F.B), La Pratica della mercatura, éd. Allan Evans, Cambridge, Mass, 1936.**

لقد كان "بيغولوتي" ممارسا للأعمال التجارية، وكان ممثلا لعدة شركات إيطالية بالحوض المتوسطي، وألف كتابه حوالي سنة 1345م ليكون بمثابة مرشد للتجار. لا يمكننا أن نحسم في إمكانية زيارته لبلاد المغرب، لكنه من الأكيد أنه استفاد من المعلومات التي جمعها من التجار الإيطاليين الذين ترددوا على المنطقة. ونكاد نجزم بأن جميع الدراسات الأجنبية المتخصصة عن

التجارة بالحوض المتوسطي في أواخر العصر الوسيط اعتمدت على "مرشد التجار". ونبه على وجود ترجمة للمعطيات المتعلقة بتجارة الإيطاليين مع المغرب الأقصى بكتاب "نصوص مترجمة" المشار إليه آنفا (صص 29-46).

قد لا نبالغ إذا اعتبرنا أرشيف جنوة من أغنى الأرشيفات الأوروبية عن العلاقات مع الدول الإسلامية في العصر الوسيط. ورغم أنه لا يحتوي سوى على مجموعة واحدة من الوثائق العربية - حسب علمنا-، وتحمل رقم 2337، لكنه يتضمن ترسانة من العقود التجارية التي حررها المؤثقون الجنوبيون، منذ أن حرر المؤثق "جيو فاني سكريبا" أولى العقود عن العلاقات المغربية الجنوبية في القرن 6هـ (12م)، علما بأن ما هو متوافر عن العلاقات بين جنوة وبلاد المغرب بأرشيف جنوة، لا يعبر عن حقيقة تلك العلاقات، والحجم الذي اتخذته في الفترة المدروسة، نظرا لتأثر ذلك الأرشيف بكثرة الحروب التي خاضتها جنوة، وتعرضه للحرائق غير ما مرة. ورغم أن عددا هائلا من العقود المحفوظة بأرشيف جنوة ما يزال في وضعيته المخطوطة، فما فتى المهتمون يقومون بنشر البعض منها، وخاصة بمجلة متخصصة تحت عنوان

"Atti della societa Ligure di storia patria". وقد صدر العدد الأول منها سنة 1858م، وتصدر بانتظام مرتين كل سنة. وقد جاء العدد 54 متضمنا لدراسة لـ "روكالياتا" عن مكتب القرصنة "Officium Robarie" الذي أنشأته جنوة خلال المرحلة المدروسة للحد من أعمال القرصنة ولتعويض المتضررين من العمليات التي ارتكبتها الجنوبيون. أما آخر عدد منها، فصدر في النصف الأول من سنة 2012م، وتعلق بعلوم القوانين التي مورست بجنوة وبالمغرب المسيحي في العصرين الوسيط والحديث، وهو مكون من قسمين، وقد خصص القسم الأول للمؤسسات المحلية والقانونية والقسم الثاني للعلوم والممارسات التجارية والبحرية بجنوة. ومن المجموعات التي غابت بالأطروحة، نذكر:

**Belgrano (L-T), Documenti inediti riguardanti le due crociate di San Ludovico 9, re di Francia, Genova, 1859.**

ويتعلق الأمر بـ 229 وثيقة تم مساهمة الجنوبيين في الحملة التي شنّها لويس التاسع ملك فرنسا على تونس سنة 669هـ / 1270م. وقدم لها "بلغرنو" بمجموعة أخرى من الوثائق عن الاتصالات التي جرت بين فرنسا وجنوة للإعداد لتلك الحملة. وقد حرر معظم الوثائق المؤثقان "بريدوني" و"فورناري". وتكاد بنية الوثائق تتشابه بها، إذ تستعرض الطرفين المتعاقدين وطبيعة

المساهمة التي قدمها ذوو رؤوس الأموال في تجهيز الحملة . ثم هناك مجموعة الوثائق التي نشرها "فريطو":

**Ferretto(A), Codice diplomatico della relazione fra la Liguria, la Toscana e la Lingiana ai tempi di Dante, in A.S.L.S.P, n31, 1901.**  
**-Ibid, Liber magistri Salmonis Sacri palatii notarii 1222-1226, in A.S.L.S.P, n36, 1906.**

وتجب الإشارة إلى أن الوثائق كانت تتكون من عدة أجزاء عن تاريخ جنوة، لكن معظمها أُنلف بعد قبلة الفرنسيين للمدينة سنة 1648م.

نشر "فريطو" مجموعتين من الوثائق المحفوظة بأرشيف جنوة تمم التجارة الخارجية للجنوبيين في القرن 13م. غطت المجموعة الأولى سنوات 1222 و1224 و1226 و1231م، وغطت الثانية الفترة المتراوحة بين 1275 و1281م. وبالرغم من أنه اهتم أساسا بالعلاقات بين جنوة وفلورنسا زمن دانتي، فيمكن القول بأنها من أهم المصادر التي تفيد المهتم بالمبادلات التجارية بين جنوة وبلاد المغرب بمختلف سلعها (للإشارة فإن "alun" اعتبر في الصفحة 274 من الأطروحة مرادفا للنبيلة، وهي مادة تستخدم في الصباغة، بينما يعني الشب).

إن مختلف الجامع التي نشرها المتخصصون من العقود المحفوظة بأرشيف جنوة، لا تعفي المهتم بعلاقات جنوة ببلاد المغرب من التربص بهذا الأرشيف الغني لتعميق البحث في تلك العلاقات. ومعظم هذه العقود التي لم تنشر بعد عبارة عن عقود قراض، وهي محفوظة بصناديق ومرتبة ترتيبا كرونولوجيا، ويمكن الاطلاع على نسخ لها، كما يمكن مقارنتها بالعقود الأصلية الموضوعية بقاعة المطالعة بأرشيف جنوة. وأما أهم الموثقين الذين حرروا عقودا تمم التجارة مع بلاد المغرب، فهم:

- "فرناريوس" في عقود تغطي الفترة المتراوحة بين 1236 و1272م.
- "يوهان دي بريدوني" (1251-1254). حرر مجموعة من العقود التجارية مع بجاية، وأقام بهذه المدينة مدة، حيث أشرف على عمليات تجارية أخرى.
- "دي كورسيو" (1262-1301).
- "يوهان دي فجيوس" (1243-1257).

- " انجليوس دي سجيسترو " (1255-1292).

- " بونوسفاسلوس دي كاسينو " (1252-1288).

- " كترادوس دي كابرينا " (1258-1265).

- " مانويل دي البرا " (1258-1292).

- " انجو كندر دوس " (1234-1262).

- " برانتوس دي كوينتو " (1270-1318).

- " ماتيوس دي بريدوني " (1244-1267).

- " غوليام دي سانتو جيورجيو " (1264-1306).

- " طوماسو دي كازانوف " (1323-1357).

وتجب الإشارة إلى وجود مجموعة من العقود، يجهل موثقوها، وقد رتبت في صناديق لموثقين مجهولين " *Notai ignoti* ".

وتتشابه العقود في بنيتها، ويمكن أن تمثل عليها بالترسيمة التالية:

"أنا فلان أعترف اعترافا كاملا بأني توصلت منك أنت فلان بقراض قيمته... أنقله في التجارة مع... (إحدى وجهات بلاد المغرب)، وألتزم بأن أنفذ الاتفاق بكامله، (وأحيانا يعرض العقد استثناءات بذكر بعض الشروط). وتم الاتفاق بحضور الشهود التالية أسماؤهم... وجرى بجنوة (وأحيانا يذكر المكان الذي أجري به الاتفاق) بتاريخ...".

وإذا ما نفذت العملية التجارية بكاملها، يوضع خط أو خطوط عمودية على العقد كمؤشر على انتهاء العملية، وإذا لم تنفذ، يترك العقد بدون خطوط.

إن مختلف هذه العقود تشكل منجما لا ينضب من الإشارات التاريخية عن المبادلات التجارية بين جنوة وبلاد المغرب أواخر العصر الوسيط. وإن كانت الاستفادة منها تتطلب الاستئناس باللغة اللاتينية، أو على الأقل اللغة الإيطالية، فإن مما يحفز على التعامل مع أرشيف جنوة أنه يحتضن بعض الموظفين رهن إشارة الباحثين الأجانب لمساعدتهم على الاستفادة من العقود، وأخص بالذكر الأستاذ "أدولفو أسيني" المتخصص في البليوغرافيا.

وأما الاعتماد في الغالب على مراجع عامة من قبيل:

- *Histoire des républiques italiennes au moyen âge*

- *L'économie médiévale au moyen âge*

فإنه لن يقدم سوى دراسة ضحلة عن موضوع الأطروحة.

ومن الغريب أن صاحب الأطروحة ذكر بأنه قام في الملاحق بترجمة مجموعة معاهدات ورسائل قم موضوع دراسته "من لغتها الأصلية اللاتينية إلى اللغة الفرنسية لتكون مرجعا لمن يريد مواصلة البحث في هذا الحقل من الدراسات" (ص10)، غير أنها في الواقع مترجمة أصلا إلى اللغة الفرنسية، وتكفي العودة إلى أعمال "دوماص لاتري" أو "أماري" للاطلاع عليها.

والواقع أن ضحالة المادة المصدرية بالأطروحة، لا تقتصر على الدراسات الأجنبية، بل وعلى المصادر العربية أيضا. فقد غاب بها كتاب "فيض العباب" لابن الحاج النميري الذي كان من المقربين للسلطان المريني ويعد الوحيد - فيما نعلم - الذي أورد معاهدة هدنة وتجارة عقدت بين هذا السلطان وجنوة (تحقيق محمد بنشقر، الرباط، 1984، ص30). بل إن بعض المصادر العربية الحاضرة بالأطروحة، تم التعامل معها بشكل انتقائي، ومن ذلك أن ابن أبي زرع في القرطاس (ص382) تحدث عن استقبال السلطان المريني أبي يعقوب سنة 691هـ (1292م) لسفارة جنوية بتازوطا، لكن لا وجود لهذه الإشارة بالأطروحة.

وقد انجر عن هذه الهزلة المصدرية إصدار أحكام متسرعة عن مسارات العلاقات بين جنوة وبلاد المغرب، ففي الأطروحة جاء ما يلي: "مر تقريبا قرن من الزمن 1272-1383 لم تفلح قومونة جنوة في إبرام معاهدة سلم أو تجارة مع حكام المغرب سواء مع الحفصيين في إفريقيا (هكذا) أو الزيانيين في تلمسان والمرينيين (هكذا) في فاس". ففي هذه الفترة تمت سفارة الجنويين إلى بني مرين عام 691هـ، وفيها جرت معاهدة هدنة وتجارة بين أبي عنان وجنوة، وفيها أبرم الحفصيون معاهدة هدنة وتجارة مع الجنويين سنة 1343م، ثم فيها استقبال السلطان الحفصي سفارة جنوية سنة 1347م بقيادة "LERCARIO BRACHANLEONE".

ج: ملاحظات لغوية: لعل قمة الاستهتار تتجلى في الأسلوب الذي كتبت به الأطروحة، وأقل ما يقال عنه أنه أعمدج للاهتزاز اللغوي وللركاكة، وقد لا تنعسف في القول بأنه لا توجد ثمة تقريبا صفحة من الصفحات تخلو من خطأ إملائي أو نحوي. لهذا، وحتى لا نستثقل على القارئ، يمكن تقديم مجرد نماذج عن ذلك الاهتزاز اللغوي.

- "كما يسميها محبيها" ص43 (محبوها)، "اشتهر سكانها كبحارة ماهرين مولعون بالحرية ص50 (مولعين)، "لدق القلاع" ص111 (لدك)، "لم يقف الجنويون مكتوف الأيدي" ص121

(مكتوفي)، "الذي جعل الجنويون يقتنعون" ص146 (الجنويين)، "وصل عددها عشرون سفينة" ص165 (عشرين)، "وهما قاعدتين مشهورتين للقراصنة" ص186 (قاعدتان مشهورتان)، "بسبب اعتماد المسلمون" ص206 (المسلمين)، "وهناك أسبابا وجيهة" ص210 (أسباب)، "بمثابة مصدرا نفيسا" ص225، (مصدر نفيس)، "اعتبر الخفصيون أنفسهم الورثة الشرعيون" ص236 (الشرعيين)، يبدو أن الأمير أبي زكرياء" ص249 (أبا)، "السفيتين كانتا ملك لمواطني جنويين" ص296 (السفيتين كانتا ملكا لمواطني جنويين)، "وبصحته ترجمانا" ص310 (ترجمان)، "عادة ما يستعملونه الأوربيون" ص314 (يستعمله) ... ، ولم تسلم الكلمات الواردة باللغة الفرنسية من الركاكة الفظيعة، ونكتفي ببسط بعض النماذج:

Les premiers invasions p : 33(Les premières), Les methodes commercial p : 40 (Les méthodes commerciales) ,L'occident medievale p 78 (médiéval), La Sicile et les musulmanes p 245 (musulmans), L'Italie septentrionales p 243, (septentrionale) , Dufourq, La vie quotidien dans les portes mediterraneen au moyen age p292 (Dufourcq, La vie quotidienne dans les ports méditerranéens au moyen âge) .

وبعد، فإن هذا غيض من فيض عن الهنات التي تخللت الأطروحة على امتداد صفحاتها، واقتصرنا على بعض النماذج فقط. ونعتقد جازمين أن البحث العلمي بالعالم العربي، لا يمكن أن يتم في غياب التنسيق بين الباحثين، والمواكبة النقدية وتقبلها.